الحسناء ذات الغمازتين

بينما أنا جالس في مكتبة النادي أمارس أحب هوايتي كعادتي يوم العطلة ... نفس الوجوه والأشخاص الذين يرتادون المكتبة، استحوذ الصمت على المكان وتوطن الهدوء حنايا القاعة، أرقه صرير الباب ... دخلَتْ فشدَّتْ الأنظار نحوها، لها سمت الأميرات، ملامحها دقيقة، وجهها طفولي حد النقاء، يقف الحنان بخجل عند عينيها الناعستين، على الرغم من شعرها القصير إلا إنني أراها أنثى كاملة، تفقدت الرفوف واختارت كتابا وجلست لتقرأه.

لم أغض طرفي عنها، فكنت أختلس إليها النظر من وراء كتابي، غرست نظرتها في المدى البعيد في اللاشيء، سرحتْ قليلا وابتسمتْ، ربما تذكرت شيئا مضحكا كشفت تلك الانفراجة عن غمازتين على وجنتيها، فنفذت إلي جوارحي وأدركت أني أسير تلك الغازية فتخيلتها ترتدي بزة حرب إغريقية يشرق من تحتها سنا جسدها البض في زهاء، سهامها نظرات مخملية قاتلة تشي بأسرار البهاء، تواترت العطلات، وفي كل مرة يزداد شغفي لمعرفتها لفك طلاسمها واقتحام معاقلها، ربما تكون هي التي أبحث عنها وأضناني البحث، تمنيت أن تكون توأم روحي، في كل مرة أشعر باللهفة تربو بداخلي، أوجه وجهي شطرها مبتسما محاولا إبداء إعجابي بطريقة متحضرة، ولكن لا جدوى، لم أنجح في لفت انتباهها.

ابتلعتني دوامة الإحباط، ولكني تملصت منها وأبحرت بفكري لأجد حيلة علها تساعدني في التقرب إليها ، وفي صباح الجمعة ذهبت قبلها واستعرت نسخة الرواية التي كانت تقرأها ولم تكملها، وعندما جاءت بحثت عنها، ثم سألتْ أمين المكتبة عن نسخة أخرى فأجابها بالنفي، فبدا اليأس على محياها، ثم خرجت. انطلقت وراءها وفي يدي مأربها، تقدمت نحوها قائلا: هاهي الرواية لقد سمعتك تسألين عنها ابتسمت في جذل:

- شكرا هذا كرم منك
- على الرحب والسعة، اسمي نادر ابراهيم، مهندس وأهوى الأدب
- وأنا سارة حسني مبارك مهندسة أيضا وأعشق الروايات

حاولت افتعال مزحة لتلطف الأجواء وتقصر المسافات، فقلت لها باسما: اسمك والدك على اسم الرئيس المخلوع .. اقتضبت ملامح وجهها وتقلصت وتركت الابتسامة ثغرها، وفي حدة قالت:

- أنا ابنته بالفعل لكنه لم يعترف بي رسميا

دبيب من الريبة يسعى بداخلي تجاهها، ولكن ثقتها الكامنة في حديثها جعلتني لا أشك في كلامها أيضا أخلاق هذا الرئيس لا تمنعه من إنكار نسب ابنته، زادت شفقتي عليها، فلابد أنها عاشت حياة بائسة، توالت لقاءاتنا، وفي كل مرة تبوح لي بسر من آلام روحها المعذبة رغم كل هذا تكن لأبيها احتراما و تقديرا و لاتقبل الإساءة إليه بقول او فعل فأتعاطف معها و يزداد حبي لها و أضع على عاتقي الترفية عنها و إسعادها أعد نفسي في صباحات الجمع لألقاها فتستيقظ زهيرات قلبي يتقطر منها الندى مكونا جدوال من الأشواق، فهي ناعمة كالرمال وصلبة كالصخر أحيانا مشرقة كالصباح ومظلمة كالليل، في غموضها هادئة كهزيع ساكن، وصاخبة كزخم حياة نابض، و ذات مرة بعد أن انصرفت سارة جاءت سيدة تسأل عني النادل، فأشار بإصبعه تجاهي. اتجهتْ صوبي متسألة

- أستاذ نادر ابراهيم ؟

- نعم أنا
- أين الأنسة سارة ؟ أوشكت الحافلة على المغادرة والرجوع إلى المشفى، سألت عنها في المكتبة قالوا لي إنها معك في مقهى النادي

استغربتْ ... حافلة ومشفى فسألتها عنهما ... فأجابت:

- مشفى العباسية والحافلة تقل المرضى الموصى لهم بالتنزه كعلاج لهم
- هل الآنسة سارة مريضة؟

تمنيت أن تقول لي حينها: لا، إنها تعمل في المشفى ... أومأتْ برأسها وانبرت قائلة:

- نعم لديها انفصام حاد في الشخصية أحضرها والدها منذ عام

دارت الدنيا من حولي وانفصلتُ مليا عن وجودي، كيف خدعتني بألامها ولم ألاحظ أن ثمة شيء وراء تناقضاتها؟ كنت كالمشدوه مسحورًا جذبته تلك البارعة لأرض الوهم نحو أجمات خيال عليل، فأذرَتْ رياحُ الحقيقة بيادر الحب، ليلقى حتفا ماجنا حاولت دفنه في مغابن النسيان، ردمت عليه بأرطال من الصبر لصقت على مشاعري المتنحبة شريط الحداد، ومنعت نفسي من الذهاب إلى المكتبة حتى لا أراها، قاومت الحنين الذي عاد ونبش من جديد، وأخرج الحب من مكمنه، ولم أستطع ... خارت أمامه حصوني الباسلة ... لم أستطع المقاومة، ورجعت إليها رافعا لواء الاستسلام، باسطا لها ذراعي مشمرا لأساعدها على الشفاء.

ذهبت لطبيبها لأتابع عن كثب حالتها، ولنتعاون سويا في إيجاد طريقة لعلاجها، وأثمرت تلك المحاولة عن بشائر طيبة فبدأت سارة تتخلى عن تخيلاتها تدريجيا و حينما يسألها شخص ما عن اسمها تنطق باسمها الحقيقي، كل يوم يمر يزداد ولهي لها، فأصبحت أزورها يوميا في المشفى، وأعطاني الطبيب بعد إلحاح تصريحا باصطحابها لنزهة إلي الخارج مرة كل أسبوع تحت مسؤوليتي و تعهدت بأن أصونها و أحميها كان الطبيب متفهما رغم وجود قوانين تمنع ذلك.

في كل مرة نخرج سويا نكتشف أماكن جديدة ومعان أسمى للحياة، نضحك حتى تدمع أعيننا، نرى أحلامنا بألوان قزحية تزداد عينان سارة بريقا وتقول لي:

- أتنسم معك رائحة الحرية... وتبتسم

وددت احتضانها حينها ولكني وعدت بأن أصونها حتى من نفسي ... يمر الوقت سريعا دائما، نتمنى أن تطول تلك السويعات أو يتوقف الزمن عند تلك اللحظات، ولم تدم تلك السعادة حين علم أهل سارة بأمر تلك النزهات وثاروا واعترضوا، فمنعها الطبيب، ومنع زياراتي للمشفى بناء على طلب أهل سارة.

مرت بعدها أيام صعبة أشعر بمرارة الفقد ووطأة الوجد، بجزع الوحدة. وسط الزحام لم أجد بدًا من الذهاب إلى أبيها وطلب الزواج ... وافق والدها على مضض بعد أن رأى إصراري ومحبتي لها ... انطلقت بعدها نحو المشفى لأزف لسارتي نبأ موافقة والدها على زواجنا وأننا لن نفترق ثانية، فردت قائلة:

- لا أستطيع أن أتزوجك فأنا متزوجة

صدمتني عبارتها، ورجعت بجزعي للوراء وسألتها:

- من؟ وكيف؟ ومتى؟

فأجابت واسترسلت:

- أنا زوجة الرئيس بشار الأسد، تزوجني منذ عام، رآني في حفلة تخرجي وأعجـ .. ..